



إهدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م

بحوث الملتقى الدولي السابع المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 - 1962م

بتاريخ: 05 و06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق ل 04 و05 جوان 2022



الفكر الإصلاحى والمقاومة الثقافية

عند أحمد رضا حوحو (1911-1956)

من خلال القصة القصيرة

Ahmed Ridha Houhou's (1911-1956) Reformative thoughts and Cultural Resistance Through The Short Story

د/ زوير بعلى

المدرسة العليا للأساتذة – بوسعادة (الجزائر)

zoubirhistory@gmail.com



ملخص: يعتبر أحمد رضا حوحو من رواد الأدب الجزائري الحديث، وقد عُرف أكثر ما عُرف بالتأليف والكتابة في جنس أدبيّ تميّز به وهو القصة القصيرة، وقد استغل أحمد رضا حوحو هذا الجنس الأدبي في الحركة الإصلاحية في الجزائر، كيف لا وهو أحد الفاعلين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي حملت لواء الإصلاح في القرن 19م، فحملت مجموعته القصصية: "نماذج بشرية"، "مع حمار الحكيم"، "غادة أم القرى"، وكذا "صاحبة الوحي".. أفكارا إصلاحية تناولت بالنقد الذهنيات البالية التي كانت تسود المجتمع آنذاك كاحتقار المرأة وعدم تعليمها، وكذا الدروشة واستغلال الناس تحت عباءة التدنّ وإظهار التنسك، كما انتقد مناهج التعليم في وقته. ويظهر البعد الإسلامي حاضرا في قصصه، والدعوة إلى ترسيخ الثقافة الإسلامية الأصيلة والاهتمام بالتعليم للوقوف في وجه الغزو الثقافي للاستعمار الذي عمل على تجهيل الشعب واحتقاره.

الكلمات المفتاحية: القصة القصيرة؛ البناء الاجتماعي؛ الموروث الثقافي؛ البعد الإسلامي؛ البعد الإصلاحى.

Abstract :

Ahmed Ridha Houhou (1911- 1956) is considered as one of the pioneers of the Algerian modern literature. Well-renowned as a short story writer, he used this literary genre in the Reformist Movement in Algeria lead by the Algerian Muslim Scientists' Association that he was an activist in. His story collection " Namadhidge Bachariya ", " Ma'a Himar Elhakim ", " Ghada Oum Elqora", " Sahibat Elwahi " and other ones contained reformative thoughts criticising old mentalities which were dominant in then societies such as trivializing women and depriving them from education, as well as fake Sufism that exploited people under the cover of religion. He also criticised the then educational curricula. The Islamic dimension is well-present in his story-telling. He sought the

consolidation of the authentic Islamic culture as well as education to hinder the colonial cultural invasion which promoted ignorance and despised the people.

Keywords: The Short Story; the social fabric; the cultural heritage; the Islamic dimension; the reformist dimension.

1. مقدمة:

اتخذت المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي أشكالا عدّة، فلم تقتصر على النضال العسكري والسياسي فحسب بل كان للمقاومة الثقافية النصيب الأوفر، كيف لا والسياسة الاستعمارية كانت تقوم بالأساس على تجهيل الشعب ليبقى تحت ربة الاستعمار والعبودية، ومن هذا المنطلق آمن رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر بأهمية المقاومة الثقافية. فشعبٌ يقرأ شعبٌ لا يجوع ولا يُستعبد. وقد كان للجنوب الجزائري حظه من المقاومة مثله مثل باقي أنحاء الوطن، فظهرت في الجنوب الشرقي شخصيات كتبت أسماءها في تاريخ الحركة الإصلاحية والمقاومة الثقافية ولعلّ من أبرز هؤلاء الأديب القاص أحمد رضا حوحو. استغلّ الأخير القصّة القصيرة كجنس أدبي يتوافق والحالة الاجتماعية للمجتمع الجزائري التي رآها في عصره، حيث إنّ هذا النوع من الكتابة الأدبية وإن كان يعتمد على السرد فإنّه يتعد عن الطول وتعدّد الفصول كما ضمّته رضا حوحو أسلوب الحوار الشيق وأسلوب السخرية والتهمك خاصة إذا تعلق الأمر بنقده لبعض الفئات الاجتماعية التي ما فتئت تستغلّ جهل الناس.

ولسنا في هذا البحث بصدّد النقد الأدبي لأسلوب حوحو في كتابة القصّة أو دراسة نشأة وتطور الكتابة القصصية في الجزائر والعالم العربي فذلك شأن أهل الأدب والنقد الأدبي ولكننا نحاول أن نستشف البعد الإصلاحي ومظاهر المقاومة الثقافية من خلال هذا النوع من الكتابة التي استغلها حوحو في الإصلاح الاجتماعي للمجتمع الجزائري إبان الحقبة الاستعمارية. ما تزال الكتابات شحيحة حول التراث الأدبي والفكري الذي تركه أحمد رضا حوحو رغم اهتمام بعض الكتاب بكتابة سيرته ولعلّ أهمّهم محمد الصالح رمضان الذي يعتبره الكثيرون ممن جاء بعده عالية على كتابه "شهيد الكلمة رضا حوحو" في الترجمة وتتبع سيرة رضا حوحو، كما كتب عنه صالح الخرفي كتابه "شهيد الثورة الجزائرية أحمد رضا حوحو" وكتب أبو القاسم سعد الله عنه أوراقا في كتابه "في الأدب الجزائري الحديث". كما كانت سيرته ومؤلفاته موضوعا لعدّة مقالات ورسائل جامعية.

وتظهر أهمية الموضوع في أنّ كتابات رضا حوحو وإن كانت ذا طابع أدبي إلا أنّها لم تخلُ من آراء إصلاحية تناولت بالأساس الجانب الاجتماعي كشكل من أشكال المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي حشد لها رضا حوحو علوم الدّين والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع

وعلم النفس وعلم التربية مما يجعلها موردا هاما ونبعاً ثرا وأنموذجا يحتذى به في الإصلاح ومقاومة الغزو الثقافي والتيار التغريبي. هذا وقد اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التحليلي لجملة من نصوص حوحو التي كتبها في مجموعاته القصصية مثل "نماذج بشرية"، "مع حمار الحكيم"، "غادة أم القرى"، حاولت من خلالها معرفة الجوانب الاجتماعية التي ركز عليها حوحو في عمله الإصلاحي.

2. نشأة أحمد رضا حوحو:

2.1. تكوينه العلمي والأدبي ونشاطه:

ولد الأديب أحمد رضا حوحو بمدينة بسكرة سنة 1911م بإحدى قرى الزاب الشرقي وهي مدينة سيدي عقبة، من عائلة عرفت بالعلم والجاه فقد كان أبوه شيخا للبلدة، وكعادة أهل القرى في تلك الحقبة فقد أدخله والده الكُتّاب لحفظ القرآن وتعلّم مبادئ اللغة العربية¹. ويبدو أنّ التكوين الشرعي كان له الأثر البالغ في تكوين شخصية حوحو الأدبية وهو ما يظهر جلياً في كتاباته، كما أنّ تاريخ المدينة واسمها الذي عرفت به وهو اسم الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري فاتح بلاد المغرب الإسلامي كان ولا شكّ ألقى بثقله في تكوين شخصية حوحو الإسلامية الإصلاحية منذ نشأتها شخصية ظلّت حاضرة في كتابات حوحو رغم مواصلة تكوينه الفرنسي فيما بعد.

التحق رضا حوحو بالمدرسة الابتدائية الفرنسية وهو في سنّ السادسة، وحصل منها على الشهادة الابتدائية سنة 1923م، ليواصل تعليمه الإكمالي باللغة الفرنسية ويتحصّل على الأهلية في مدينة سكيكدة سنة 1928م؛ ليعود حوحو بعدها إلى مسقط رأسه ليعمل في إدارة البرق والهاتف كموظف بسيط في مصالح البريد والمواصلات². شاءت الأقدار أن تبعد حوحو عن الوطن فأجبرت الظروف عائلته على مغادرة الوطن سنة 1935م إلى الحجاز ليتم دراسته هناك ويتخرّج من معهد العلوم الشرعية بالمدينة سنة 1938م ليُعيّن أستاذا بنفس المعهد³. عاد حوحو إلى الجزائر سنة بعد وفاة والديه وانظم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. واستقر بقسنطينة حيث عُيّن مديرا لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية لمدة سنتين ثمّ مديرا لمدرسة شاطودان (شलगوم العيد حاليا)، ثمّ كاتباً عامّاً لمعهد عبد الحميد بن باديس سنة 1947م وظلّ في هذا المنصب إلى أن استشهد⁴. كما أسّس رفقة عبد

1- محمد الصالح رمضان: شهيد الكلمة رضا حوحو، ص: 10 و 11.

2- نفسه، ص: 10.

3- نفسه، ص: 12.

4- نفسه، ص: 15.

الرحمان وزميلين آخرين جمعية "إخوان الصفا"، هذه الجمعية التي كانت تواصل اجتماعاتها وأعمالها في منزل أحمد رضا حوحو، وكان من ثمار لقاءاتها كتاب "مع حمار الحكيم".

كان لحوحو جملة من الرحلات ساهمت في تكوين شخصيته وصقل معارفه وخبراته وتجربته في الكتابة الأدبية، منها رحلته سنة 1950م إلى الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، وكذا رحلته إلى باريس للمشاركة في المؤتمر العالمي للسلم التقى فيها بشخصيات علمية وسياسية فاعلة على الصعيد العالمي.⁵

2. 2. إنتاجه الفكري :

ترك لنا رضا حوحو إنتاجا فكريا وأدبيا ثرا فكتب عدّة مقالات في مجلات كالمنهل والرابطة العربية والبصائر، نذكر منها:

- مقال: "الطرقية في خدمة الاستعمار بمجلة "الرابطة العربية" سنة 1937م"

- مقالات بمجلة المنهل منها: "ابن الوادي"، "الأديب الأخير"...

- مقالات في جريدة الشعلة

كما ترك عدّة مؤلفات من قصص قصيرة وروايات منها:

- غادة أم القرى: وهي باكورة أعماله ألفها في فترة تواجده بالحجاز إبان الحرب العالمية الثانية وطبعت سنة 1947م

- مع حمار الحكيم سنة 1953م بقسنطينة، وكان سبب تأليفه إهداء عبد الرحمان شيبان كتاب توفيق الحكيم "حماري قال لي" ودعوته لأن ينسج على منواله قائلا له: تُجنّد قلمك لتوجيه هذا الشعب الذي كثر مستغلوّه، وقلّ خادموه، على نحو ما فعل توفيق الحكيم بمصر...⁶

- صاحبة الوحي طبعت سنة 1954 بقسنطينة.

- نماذج بشرية التي طبعت سنة 1955 بتونس.

5- محمد الصالح رمضان: شهيد الكلمة رضا حوحو، ص: 17 و18.

6- مقدمة "مع حمار الحكيم" بقلم عبد الرحمان شيبان.

إضافة إلى جملة من المسرحيات وتمثيلات ألفها لفرقة المزهر القسنطينية.⁷

هذا ويغلب على كتابات حوحو الطابع الاجتماعي، ويرى سعد الله-رحمه الله- أن نشأة حوحو في مدينة سيدي عقبة حيث ضريح عقبة بن نافع الذي كان مزارا للكثيرين حيث تزدهم أفواج من الناس الجزائريين والسواح الأجانب للاطلاع على عادات وتقاليد المنطقة هو الذي أثر في كتابات حوحو وجعله ينحى هذا المنحى وهو الأدب الاجتماعي⁸. ويلاحظ أن مؤلفات حوحو القصصية كان أغلبها بعد انضمامه إلى جمعية العلماء المسلمين وذلك بعد عودته إلى الوطن سنة 1946م، وهذا يعطينا العامل الرئيس في البعد الإصلاحي الذي حملته كتابات حوحو في القصة القصيرة.

3. البعد الإصلاحي في كتابات رضا حوحو:

3. 1. القصة القصيرة كجنس أدبي:

تعتبر القصة القصيرة جنسا أدبيا قائما بذاته يعتمد على أسلوب السرد وهو أسلوب له مميزات ومن مميزات القصة القصيرة:

- القصة القصيرة: من اسمها قصيرة الطول فهي تتناول حدثاً واحداً، لذا فهي تمتاز بالإيجاز مما يجعلها سهلة التداول من طرف المتلقي ويمكنه من قراءتها قراءة سريعة والوصول سريعاً إلى المضمون ومقصد المؤلف، ولعل هذه الخاصية التي تمتاز بها القصة القصيرة هي ما دفع بحوحو لاستغلالها في الإصلاح الاجتماعي، ذلك أن التطويل يشعر القارئ بالملالة والسآمة، كما أن الكلام ينسي بعضه بعضاً ويُبعد القارئ وينسيه الهدف الأسمى الذي قصده الكاتب ولذا كان هذا الجنس الأدبي أليق بالإصلاح خاصة في مجتمع كان يعاني أغلبه من الجهل بسبب السياسة الاستعمارية.

- تتسم القصة القصيرة بوحدة الانطباع عند القارئ. يقول بويه (Poe): "تتسم القصة القصيرة بوحدة الانطباع الذي تحدته لدى القارئ، ويمكن أن نقرأها في جلسة واحدة فكل كلمة تسهم في إحداث التغيير الذي وضعه المؤلف سابقاً. هذا الأثر يجب أن يتم له الإعداد له مع أول جملة ثم يتدرج حتى النهاية وعندما يصل إلى أعلى نقطة. هنا تنتهي القصة القصيرة"⁹.

- تمتاز القصة القصيرة بالنهاية السريعة التي تلي ذروة الحدث مباشرةً، وهذا ما تلمسه

7- محمد الصالح رمضان: شهيد الكلمة رضا حوحو، ص: 13 وما بعدها.

8- أبو القاسم سعد الله: في الأدب الجزائري الحديث، ص: 86.

9- إنريكي أندرسون إمبرت: القصة القصيرة: النظرية والتقنية، ص: 51.

جليًا في قصة "عائشة" من مجموعة حوحو القصصية "نماذج بشرية" فبعد أن ساءت حالتها وتعقدت حياتها وبلغت الذروة جاءت النهاية سريعة بزواجها من زوج لم يسألها عن ماضيها الأليم... ولكنّه مرهم النسيان سريعاً ما فعل مفعوله فاندمل الجرح وانمى الرسم ولم يبق من تلك الإحن والمحن إلا بصيص ضئيل من الذكريات المبررة"¹⁰.

- الوحدة الموضوعية في القصة القصيرة؛ حيث تكون الأحداث جميعها لحدث واحد أو موضوع معين، فتتكامل الأحداث مع بعضها وتشابك وترابط من أجل هذا الهدف المحدد سلفاً.

- عنصر التكثيف في القصة القصيرة ويقصد به اختزال الأحداث في أفعال رئيسية مركزة والابتعاد عن الأسهاب والابتعاد عن الاستطراد والحشو وسرد التفاصيل عن طريق الاعتماد على عنصري الحذف والإضمار¹¹.

- وجود عنصر الدراما فعلى الرغم من أن القصة القصيرة قد تتألف من شخصية واحدة أو حدث واحد، ولكن يجد فيها القارئ حين قراءتها الكثير من الديناميكية ويستشعر الحيوية والتشويق المستمر، ويمكن لكتاب القصة أن يولّدوا الشكوك بجعل القصة تحوي أكثر من شخصية كالشخصية البطولية (PROTAGONIST) التي تسعى لتحقيق الهدف، وشخصية الوغد (ANTAGONIST) التي تحول دون تحقيق البطل لهدفه، وتصبح نقطة التحوّل (TURNING POIGNT) في حدود الدراما (كوميديا) بالنسبة للبطل، أما نقطة التحوّل السلبية فعلاّمة على (المأساة)¹². ويظهر عنصر الدراما في توظيف حوحو للشخصيتين (البطل والوغد/القيم الإيجابية والسلبية) في توليد الشكّ في قصة المعلّم السي زعرور في صراعه مع المدير في البداية، ثمّ نائب المجلس البلدي وزميلته فيما بعد.

ويلاحظ أنّ حوحو لم يكن من أنصار المتخيّل في القصة طالما أنّ هدفه ليس الطرفة ولا التشويق ولا الصناعة الأدبية في حدّ ذاتها وإنّما كان كلّ ذلك فقط طريقاً يخدم هدفاً أسمى وأهمّ وهو الإصلاح الاجتماعي. وهو يعبر عن ذلك صراحة في مجموعته "نماذج بشرية" بقوله: "تمّ إنّي لم أعمد في عرض هذه النماذج إلى الخيال فأستخدمه في التنميق والتزويق، أو إلى التحليل النفسي فأسخّره لإثبات فكرة أو دحض أخرى، أجل إنّي لم ألجأ إلى ذلك وإنّما التجأت إلى المجتمع وانتزعت من مختلف طبقاته نماذج عشت مع بعضها، وسمعت

10- أحمد رضا حوحو: نماذج بشرية، ص: 18.

11- بشرى سلواني: الخصائص الفنية للقصة القصيرة جداً. قراءة في متون مغربية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، المجلد 1، 69، مايو 2021، ص: 103.

12- روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص: 515.

عن بعضها، نماذ حيّة أقدمها للقارئ لعلّه يتوصّل بها إلى تفهّم بعض طباع مجتمعه...¹³؛ ولهذا أورد لنا حوحو الكثير من القصص التي عايشها فعلا كقصة "سيدي الحاج" التي حدثت معه إبان الحرب العالمية الثانية وهو مقيم في مكة.

وأسلوب السخرية الذي هو من خصائص القصة القصيرة هو الذي لمسناه وتلمسّه من قبل أبو القاسم سعد الله حيث يقول: "لفت نظري في أدب حوحو ظاهرتان هامتان هما: الأولى السخرية، والثانية براعة الحوار. فالسخرية ظاهرة شائعة في جميع آثاره حتى الجاد منها يلجئ إليها للتعبير عن خلجات نفسه وآرائه في شؤون الحياة، وليس غريبا أن يعتمد حوحو إلى هذا الأسلوب من الكتابة في مجتمع كالمجتمع الجزائري تسوده تقاليد معينة..."¹⁴.

3. جوانب الإصلاح والمقاومة الثقافية في كتابات رضا حوحو:

تعدّدت جوانب حوحو الإصلاحية من خلال كتابته في القصة القصيرة كالإصلاح الاجتماعي من خلال نقد بعض العادات والذهنيات البالية، وإصلاح التعليم.

أ. رضا حوحو والتحرير الحقيقي للمرأة:

انتقد أحمد رضا حوحو بعض الذهنيات والعادات التي كانت تسود المجتمع ونظرته للمرأة في قصته "عائشة" وهي قصة ضمن مجموعته القصصية "نماذج بشرية"، انتقد المجتمع الذي لا يعلم المرأة، وينظر إليها نظرة دونية، مجتمع لا تعرف فيه المرأة سوى أنّها عورة يستحي أهلها من ذكر اسمها، ويستعمل حوحو أسلوب التهكم والأدب الساخر حين يذكر أنّ مجتمعه يفتخر فيه الرجل بحماره وحصانه بينما يسمي نساءه وبناته بـ "العباد حاشاك"، يقول: "هي إذن كائن تافه لا مسؤولية له في الحياة، بل إنّها أتفه من أيّ حيوان من الحيوانات التي يملكها والدها الذي لا يستحي من ذكر حماره أمام الناس ويفتخر بذكر حصانه ... أمّا عائشة فإنّها دولا ب بشرية تديره يد ذومها فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإرادتهم ووفقا لرغباتهم، وكلّ هذا لا يعنينا ولم تفكر فيه، بل إنّها لا تملك حقّ التفكير فيه"¹⁵. يرى حوحو أنّ التحرير الحقيقي للمرأة هو بتعليمها وثقيفها واصفا مجتمع عصره الذي لا يرى في المرأة حسب رأيه سوى آلة للنسل، محمّلا حوحو ذومها تبعة انحطاطها الثقافي لأنّهم لم يُعنوا لا بتثقيفها ولا بتعليمها ومحمّلا المجتمع مسؤولية عدم إنشاء وسائل التربية والتعليم.

13- أحمد رضا حوحو: مقدّمة كتابه نماذج بشرية.

14- أبو القاسم سعد الله: في الأدب الجزائري الحديث، ص: 92.

15- أحمد رضا حوحو: نماذج بشرية، ص: 15.

ب- رضا حوحو ومناهج التربية والتعليم:

عاب رضا حوحو مناهج التعليم الأهلي في وقته التي كانت حسبه لا تعتمد إلا على الحفظ والاستظهار في مراحل التعليم الأولى دون الفهم والإدراك، وفي كتابه "مع حمار الحكيم" يدور الحوار مع حمار الحكيم قائلاً: "والطفل-كما لا يخفى-يحتاج في مرحلته الأولى إلى التربية الصّرفة، أعني تربية عقله. قلت-فأهم يا أستاذ؛ استمرّ في بحثك. قال: -وإنّه لا يحتاج إلى التعليم بقدر ما يحتاج إلى تربية فكره وتميرين ذهنه على فهم المسائل البسيطة وهضمها واستنتاج زبدها وفوائدها. فالاستظهار بدون فهم في المراحل الأولى هو العلة الوحيدة والداء العضال الذي يضرّ بالتلاميذ"¹⁶.

وتمرين الطفل على المسائل البسيطة هو عين ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدّمته بقوله "واستعداده لقبول ما يرد عليه" رابطاً في ذلك بين قوة العقل (النضج)، والاستعداد. يقول ابن خلدون معللاً: "ويكون المتعلّم أوّل الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسيّة، ثمّ لا يزال الاستعداد يتدرج فيه قليلاً قليلاً بمخالطة مسائل ذلك الفنّ وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوّقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد"¹⁷. ويواصل رضا حوحو حوارهم مع حمار الحكيم في نقد المناهج التي تثقل كاهل المتعلّم لأنها تعتمد على الاستظهار فقط دون الفهم فيكبر المتعلّم وليداً لا فهم له ولا إدراك وحينئذ يتعسرّ علاجه.

ورأي حوحو رأي له ما بعضده، وهو في رأي عين ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدّمته حينما قال: "إنّ المتعلّم إذا حصّل ملكة ما في علم من العلوم استعدّها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال، وانطمس فكره ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم"¹⁸.

ويحاول رضا حوحو في قصة "التلميذ" معالجة ظاهرة الفرق الذي كان سائداً بين سكّان الأرياف وبين مدن الشمال فيما يتعلق بالتعليم وهو ابن الرّيف الذي عايش ذلك الفرق الكبير أثناء مراحل تكوينه العلمي حينما انتقل من الزاب الشرقي إلى المدرسة الفرنسية في الساحل (سكيكدة). وهو إذ ينقل قصّة التلميذ القروي "دروت" يعطي النموذج الذي يجب أن يحتذي به الطّلاب في القرى حيث الفقر وشظف العيش يقفان حائلاً أمام

16- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم، ص: 89 و90.

17- ابن خلدون: المقدمة، ص: 606.

18- ابن خلدون: المقدمة، ص: 606.

العلم والتحصیل. "دروت" الذي كان ابن خبّاز فقير في مدينة ميتر بفرنسا وكيف ضحك عليه أبناء المدن حين قدم إلى ميتر للمشاركة في مسابقة الدخول إلى الكلية الحربية وسخروا من مظهره الرئفي ونعله الممتلئ بالوحل، ولكنّه في الأخير نجح وصار القائد العظيم في جيش نابليون الأوّل. بعدما كان يجمع بين الدراسة والعمل اليومي لعائلته الفقيرة.¹⁹

لم ينسَ حوحو حال المعلّم والذي يدعو من خلال قصته "سي زعرور"-الشخصية المقتبسة من الفرنسية- إلى وجوب إعطائه مكانته اللائقة ماديا ومعنويا. سي زعرور ذلك المعلّم الرسالي والذي للأسف تحوّل مع الوقت ونتيجة للضغوط الإدارية والاستغلال في مجتمع تحكّمه الماديات من التعليم بعد أن طرد من وظيفته بسبب جشع الإدارة إلى عالم المال والصرف ليصير بعدها رغم فساده مقصد العام والخاص تُهدى إليه رغم فساده الأوسمة التي حرم منها وهو يمارس أنبل وأشرف مهنة لا شيء إلا للمال. المال الذي يصفه حوحو قائلا: "والمال في عرف البشر هو الفضيلة وهو الشرف وهو العلم والأدب."²⁰

وكلام حوحو عن التعليم ونقده لمناهج تعليم المدارس الأهلية والإدارة ليس كلام رجل بعيد عنهما فهو قد عانى مهنة التعليم وإدارة مراكز التعليم فقد كان عيّن- كما أسلفنا - مديرا لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية لمدة سنتين ثمّ مديرا لمدرسة شاطودان (شلفوم العيد حاليا). وفي كتابه "مع حمار الحكيم" ينتقد حوحو التعليم الرسمي وهو التعليم الذي تشرف عليه السلطات الاستعمارية في ذلك الوقت مبيّنا أنّ الغاية منه تجهيل الشعب وفصله عن هويته ومقوماته مستعملا حوحو أسلوب السخرية والتهكم كعادته قائلا: "قلت: -هناك التعليم الرسمي وهو مبني على قاعدة فلسفية عميقة وغامضة في نفس الوقت، وهو تعلّم لتجهل..."²¹. وما يجعل أحكام وآراء رضا حوحو ذات قيمة علمية هو أنّ الرجل قد درس التعليم الشرعي في صغره ودرس التعليم الرسمي الفرنسي، كما اطّلع على الفكر الإسلامي والفكر الغربي الذي يجيد لغته جيّدا هو الآخر ممّا يتيح له المقارنة بين التعليم الرسمي والتّعليم الحرّ الذي كان في المدارس التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين.

ت- بين التدين الفعلي والمغشوش:

يعرض لنا حوحو في قصة "الشيخ زروق" أحد النماذج لأصحاب التدين المغشوش ممّن يستغلّون العاطفة الدينية للناس لفضاء مآرب ومصالح فردية ضيقة. وفي قصة "سيدي الحاج" وهو رجل أمّي لا يتقن لا العربية ولا الفرنسية وبالرغم من كلّ ذلك فهو

19- أحمد رضا حوحو: نماذج بشرية، ص: 63.

20- المرجع نفسه، ص: 55-62.

21- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم، ص: 16.

يملك منسبا مرموقا في إدارة حكومية، والأدهى من ذلك كله فهو لا حظ له حتى في المعلوم من الدين بالضرورة رغم أنه يخفي جهله بلحيته الكثيفة وهندامه العربي الذين يخذعان الناظر إليه فيظنه من كبار علماء الدين، وهو الذي ابتدأ في وضوئه برجليه!!!

ث- رضا حوحو ونقد الاستشراق والفكر الغربي:

خصّص حوحو في "حمار الحكيم" مكانا للحديث عن الاستشراق، والفكر الغربي ونظرة الغرب للشرق، تلك النظرة الدونية للعالم الشرقي، فكم من كاتب غربي حسب حوحو له من الكتابات الرصينة في مجالات عديدة تحظى باحترام القارئ حتى إذا تناول بالكتابة موضوع الشرق والشرقيين (العالم الإسلامي) نزل من صرحه الشامخ إلى الدرك الأسفل بتعبير رضا حوحو فيأتي بالسخافات نتيجة تعصبه المقيت الذي يبعده عن الموضوعية وما يقتضيه البحث العلمي. ويختم حوحو حديثه عن البون الفكري بين الشرق والغرب بكلام غاية في العمق: "ثم قلت-كيف يتسنى للغرب الممعن في المادّية أن يفهم ويدرك حقائق الشرق؟ اللهم إلا إذا تسنى للمادّة أن تستجلي كنه الروح الخفي.. ألا ترى بعد هذا أنّ الشقّة بعيدة بيننا، بعد الشرق عن الغرب"²². وفي خضمّ حديثه عن الاستشراق وهو أداة من أدوات الاستعمار الفكرية يفضح حوحو وسائل المستعمر في ادّعائه أنّه يحمل رسالة حضارية تمدنية ولو تعلق بأكثر أعماله وحشية تجاه الدول والشعوب المستعمرة، مع نظرتة الدونية إلى شعوبها ونعتها بالانحطاط، وتصوير الغربي بالمعلم المثالي والشرقي بالتلميذ البليد.

ج- رضا حوحو والسياسة:

يرى حوحو أنّ النضال السياسي يجب أن يبني على أساس أخلاقي فهو نضال دائم ودؤوب يعتمد على المبادئ والأفكار والسياسة وسيلة لتحقيق الغاية الشريفة منه وهي المصلحة العامّة، لا أن تعتمد على المصالح الشخصية والحزبات الفردية. ويرى حوحو أنّ عمل الأحزاب السياسية -منتقدا الأحزاب السياسية في وقته- يجب أن لا يقتصر على العمل السياسي والانتخابي فقط، ولكن أن يوجّهوا بعض جهودهم إلى رفع مستوى الأمة الثقافي.²³ فهو يرى أنّ المقاومة الثقافية للاستعمار يجب أن تأخذ حظها من المقاومة السياسية والعسكرية ذلك أنّ تثقيف الشعب وتنويره هو أساس كلّ مقاومة.

22- المرجع نفسه، ص: 43.

23- أحمد رضا حوحو: مع حمار الحكيم، ص: 72 و73.

4. خاتمة:

ختاماً؛ وبعد عرض نُتفٍ ممّا حوته بعض مؤلفات حوحو خاصة في القصّة القصيرة من آراء إصلاحية في الجانب الاجتماعي تنضوي كشكل من أشكال المقاومة الثقافية الجزائرية للاستعمار الفرنسي، فإنّ حوحو يعتبر بامتياز مصلحاً اجتماعياً من رواد الإصلاح الاجتماعي في الجزائر، وقد تفرّد باستغلال موهبته الأدبية بالكتابة في جنس أدبي له مميّزات خاصّة ما جعل عبد الرحمان شيبان -وهو صديقه الذي عاصره- يصفه بالمصلح الاجتماعي .

إنّ اغتيال الاستعمار الفرنسي الغاشم لرائد من رواد المقاومة الثقافية والإصلاح الاجتماعي في الجزائر وهو أحمد رضا حوحو لم يكن اعتباطاً وإنّما للخطر الكبير الذي كان يشكّله فكره وأدبه في كشف المستعمر وفضح نواياه، كيف لا وهو الذي ما فتئ يعمل جاهداً على تنوير الرأي العام متسلّحاً في نضاله الثقافي بالثقافة الإسلامية ومستغلاً معرفته وإطلاعه في ذات الوقت على ثقافة المستعمر ولغته.

إنّ هدف حوحو من الأدب وفي عرضه للنماذج البشرية هو التعليم والإصلاح الاجتماعي، ولذا نجده يلتمس الأعذار لبعض الشخصيات التي تتوافق والنماذج البشرية التي يعرضها في قصصه نتيجة الجهل والبيئة المحدودة بقوله: "...وسنحكم عليهم حكماً خاطئاً لأننا سنخضع في حكمنا إلى قواعد وأصول تعلمناها وفرضها علينا العلم والعقل المثقف، مع أنّ هذه الشخصيات توصلت إلى ما توصلت إليه على ضوء فطرتها وهضمته بجهاز طبيعتها في محيطها الضيق وبيئتها المحدودة..."

لا يزال أدب رضا حوحو يحتاج إلى قراءة واعية من الباحثين، فهو مادة يفيد منها الأديب والمؤرّخ وعالم الاجتماع، كما أنّه يعتبر عيناً ثرة لمن يكابدون العمل الإصلاحي في الميدان الاجتماعي. ذلك أنّ مجتمعا على حدّ تعبير عبد الرحمان شيبان وإن تحرّز إلى حدّ بعيد من الخرافات التي نسجتها الجهالة على عقيدته الدينية فلا يزال خرافياً في السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم.

تناول المؤلّفون والدارسون الجانب التاريخي من حياة وسيرة رضا حوحو بالكتابة، ونالت الدراسات الأدبية حظاً من كتاباته الأدبية كرسائل جامعية، ولكن البعد الفلسفي والفكري لمؤلفاته، وكذا الاجتماعي (علم الاجتماع) لا يزال حقلاً بكرًا لمن يروم التنقيب والبحث.

إنّ قراءة أدب حوحو يجب أن يتعاون فيه المؤرّخ والأديب وعالم الاجتماع وعالم النفس والفيلسوف، لرجل عاش في الرّيف وفي كبريات المدن، ورحل وارتحل فسّرق وغرّب

ودرس الأدب العربي والغربي، واكتوى بنار الاستعمار، وتجسّم عناء التعليم والإصلاح. فأبى قراءة من جانب واحد في مؤلفاته تبقى قراءة ناقصة لا يُعوّل عليها في بناء مشروع إصلاحي كامل ومتكامل.

إنّ الدارس لمؤلفات حوحوي أهميّة استغلال مثل هذه الأجناس الأدبية في الإصلاح الاجتماعي والبناء الحضاري، وهو الذي كان يدعو في "حمار الحكيم" في نقده للحركة الأدبية في عصره إلى توجيه حركة الكتابة الأدبية لخلق حركة البناء الثابت والإنشاء المجدي. لا أن تُترك تسير دون قيادة ولا توجيه لتقوّض في يوم ما أنشأ في سنين. وخير الأدب كما قال شيبان في تقيضه لكتاب رضا حوحو ما كان من الشعب وإلى الشعب.

5. قائمة المراجع:

* المؤلفات:

- إنريكي أندرسون إمبرت: القصة القصيرة: النظرية والتقنية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، دط، 1999.

- روبرت، دي بوجراند: النَّصّ والخطاب والإجراء، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998.
- حوحو، أحمد رضا، مع حمار الحكيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1982.

- حوحو، أحمد رضا، نماذج بشرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربية، دط، 2012.

- حوحو، أحمد رضا، غادة أمّ القرى، وزارة الثقافة، الجزائر، دط، 2007.
- الخرفي، صالح، شهيد الثورة الجزائرية أحمد رضا حوحو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دط، 1992.

- ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، دار الفكر، لبنان، ط1، 2004.
- رمضان، محمّد الصالح، شهيد الكلمة رضا حوحو، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر. الطبعة، 1984.

- سعد الله، أبو القاسم، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007.

* المقالات:

- بشرى، سلواني، الخصائص الفنيّة للقصة القصيرة جدًا. قراءة في متون مغربية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، 69، مايو 2021، 97-108.